يجدُ الـكونَ جميعاً مسرحا يجتليـه غادياً أو رائحا
هائم يضرب فى آفاقه
دائم التَّرحال موصولَ الجذل

ولـكم شاهدَ إقبال الدجى حين ذابت فيه ألوان الشفق
ورأى الليلَ إذا الليلُ سجا وانجلى البدرُ وضيئاً أبلجا
تقبس الألحاظ من رونقه
قبل أن يدركه موجُ الغسق

كم رأى الراعى الحقول النَّضِرَهْ حفلت بالحسن فى عيد الربيع
ورأى الصـيف يُعَفِّى أثره يـــد عاتيةٍ مقتدره
تركت جنتـــه خاويةً
جَفَّ فيها الزهرُ والروضُ المَرِيع

ولـكم أبْهَجَه صفوُ الخريف ورأى سحر مجاليه الوضاء
واغتدى يرتع فى ظل وريف قدسرى فى جوه نفح لطيف
يملأ الصـــدر به مستروحا
قبل أن تعصفَ أنواء الشتاء

يا قنوعا مثَّلتْ عيشتُه عيشةَ الانسان فى فجر الوجود
يا خليًّا أنسه وحـــدته إيه يا من برئت فطرته
من غرور العيش فى زخرفه
يا طليقاً ما درى معنى القيود

يا قرير العين فى خلوته لم يجرِّبْ مرةً غَدْرَ الصديق
يا نقيَّ القلب فى عزلته لم ير العالم فى زحمتـــه
هات من لحنك ما يطربنى
يا غريراً أنت بالبشر خليق

يا رضيَّ النفس فى إيمانه نَعِمَتْ نفسُك فى ظل رضاها
إيه يا من قَرَّ فى وجـــدانه مِن هُـدَى اللهِ ومن رضوانه
ما ترنَّمتَ به فى غبطة
فطن القلب إليهـا فوعاها

هات من لحنك يا راعى القطيع قد نفى لحنك عن قلبى الحزَن
هيه إني ما تغنيتَ سميع وسأمضى شاكراً هذا الصنيع
ذاكراً لحنَـك مفتوناً به
إن فى ذِكراه رَوْحاً وسكن

محمود الخفيف

من الأدب الفرنسى المعاصر

أندريه جيـــد

André Gide

بقـــلم على كامل

تتمـــة

يرى أندريه جيد ـ ويتفق معه فى ذلك مارسل بروست والـكاتب الايطالى بيراندللو ـ أن الشخصية ماهى إلا وهم زائف ، وأن الانسان صنيعة الظروف والاحتمالات

ومهما يكن مقدار ما فى هذه الآراء من الحق أو الباطل فقد كان لها الفضل الأول فى تجديد القصة الأوربية لما تضمنته من تحطيم فـكرة (الأخلاق الثابتة) و (النماذج الانسانيـة) التى كانت أساس القصة التحليلية فى الأدب الغربى لتقيم على انقاضها أسس فـكرة (اللاشعور) قبل العالم (فرويد) نفسه . كما أن هذه الآراء قد أبانت الأثر العظيم للغرائز الجنسية وعدم توازن العواطف فى حياة الأشخاص متأثرة فى ذلك بقصص الـكاتب الروسى دستويفسكى

على أنَّ ما يمتاز به اندريه جيد من كل من مارسل بروست وبيراندللو أنه لايكتفى بالنظر الى الأمور نظرة العالم النفسى ، بل إنه يخرج من دراسته (بقاعدة) يرى من الواجب السير عليها فى الحياة : تلك القاعدة هى وجوب أن يسعى الانسان الى فهم طبيعته وإدراك حقيقة نفسه بنفسه ، وما ذلك إلا بالخضوع لـكل الدوافع المتنوعة مهما كانت ، والتذرع بالشجاعة لتحقيق كل ما يجيش فيه من الرغبات دون اختيار ، أى دون أن يقول الانسان لنفسه : هذا متفق ومع الآداب العامة ، وهذا مغاير لها ؛ هذا يمس الدين وهذا لايمسه . . . . . الخ يجب أن يكون كل منا (كطفل ضال ، وُجد دون أن تُعرف حالته المدنية ، دون أوراق . . . . . قذفه المجهول ، لايَعرِف له ماضياً ولا قاعدة يسير عليها ولاسنداً يعينه ، لاوطن له ولا أجداد)

إن هذه هى الوسيلة الوحيدة عنـد چيد لانكشاف حقيقة نفوسنا أمام أعيننا ، وعندئذ نسير على هدى طبيعتنا

وفى قصته مزيفو النقود Les faux-monnayeurs (١٩٢٥) نرى الفتى (برنار) يخاطب القصصى (ادوار) ويسأله النصح كيف يضع قاعدة لحياته ، فيجيبه ادوار قائلاً : (إن هذه القاعدة تجدها فى نفسك على أن يكون قصدك السير الى التقدم . ليس عندى ما أقوله لك . إنك لاتستطيع أن تستمد هذه النصيحة إلا من نفسك . فلا تحاول أن تتعلم كيف تعيش إلا بأن تعيش)

ولكى نعيش ـ فى نظر چيد ـ عيشة لايقيدها قيد يجب ألا نتردد عند الحاجة فى الثورة على نظام الأسرة والجرى وراء إحساساتنا تقودنا الى حيث الحقيقة العظمى . فالاستقرار هو ألد أعداء چيد ، لأن رائده هو أن نكون متأهبين دائماً لتغيير جديد فى حالتنا

وفى كتابه الأغذية الأرضية Les Nourritnres térrestres نسمع چيد يخاطب (ناثانايل) Nathanaël ملقياً عليه تعاليمه قائلاً :

(ناثانايل : إياك أن تستقر فى مكان ، فبمجرد أن تغيرت ظروف هذا المكان وأصبحت موافقة لطبيعتك ، أو جعلت أنت نفسك موافقاً لظروف المكان ، عندئذ لا تبق لك فائدة تُرجى من وجودك ، فيجب أن تهجره ، ليس هناك أخطر عليك من أسرتك ، من غرفتك ، من ماضيك)

وفى قصة L' Immoraliste نسمع (مينالك) Ménalque يقول : (إننى لا أريد أن أتذكر . فاعتقادى أن هـذا منع لوصول المستقبل . واعتـداء على الماضى الذى لم يعد لى فيه حق ، إننى بنسيانى الكامل للأمس أجدد كل ساعة من حياتى . إن كونى كنت سعيدا لا يكفينى ، لأننى لا أومن بالأشياء الميتة . وما كنت عليه وزال عنى الآن هو عندى كأنه لم يكن)

على أن فكرة چيد عن التحرر المطلق كما رأينا لم تقض على عاطفته الدينية . بل لقد أحدث عنده هذا الايمان القوى بالتحرر وبالاستسلام لكل إحساس يغمرنا ، نتيجةً عكسية ، إذ جعل چيد يترك العنان لأحساسه الديني يطغى عليه بين وقت وآخر دون أن يحاول كبته ، فنراه يتكلم عن الله والحياة الخالدة بأسلوب متصوف زاهد ، ففى كتابه الأغذية الأرضية Les Nourritures terrestres وهو الكتاب الذى ينفجر فيه بالدعوة إلى التمتع بالحياة الحسية يقول : (إنك حيثما تذهب لا تستطيع أن تقابل إلا الله) وأيضاً (ناثانايل : لا تأمل أن تجد الله إلا فى كل مكان) وفى كتابه الأغذية الأرضية الجديدة Les Nouvelles Nourritures terrestres يقول : (يجب أن نفكر فى الله بأقصى مايمكن من الانتباه واليقظة . . . . . إننى عنـد ما أهجر التفكير فى الخالق إلى التفكير فى المخلوق تنقطع صلة نفسى بالحياة الخالدة وتفقد حيازتها لملكة الله)

والآن ، أليس من التناقض مع فكرة (التحرر الأخلاق) والدعوة إلى التمتع بالحياة أن يغمر چيدَ إحساس أشد المتدينين إيماناً فيفكر فى الله كل يوم ـ كما يقول ـ ولا يستطيع له فراقاً ؟

إن چيد يبرر موقفه بفلسفة هى أهم نواحى التجديد فى تفكيره . إنه يفصل بين اللذة plaisir والحب amour ، أو بعبارة أخرى بين الجسد corps والنفس âme ، لذا نراه يبيح من جهة تحقيق كل مقتضيات الجسد ، ومن جهة أخرى تحقيق كل مقتضيات النفس فى الالتجاء إلى قوة عُليا . ولا شك أن رأى چيد هذا لايتفق مع عقيدة دينية ، ولكنه فى صميمه وَحْى طابعه الديني الذى لم يستطع التخلص منه فأراد التوفيق بين إحساسه الدينى ومذهبه الفكرى فى التحرر الأخلاق

وفى العبارة الآتية يعترف لنا چيد أن هذه الناحية من تفكيره كانت خلاصاً وتبريراً لما أوقعته فيه مشكلته النفسية . يقول : (أما فيما يتعلق بى فقد قلت مراراً كيف أن الظروف وما تتجه إليه طبيعتى كانت تدعونى إلى التفرقة بين الحب واللذة لدرجة أنه كانت تؤلمنى فكرة المزج بينهما) ثم يقول لقد فصلت أنا أيضاً بين اللذة والحب ، بل إن هذا الفصل بين الأثنين قد ظهر لى أنه كان لازماً . فاللذة أكثر نقاء plus pur والحب أعظم كمالاً plus parfait)

يرى چيد أن انطلاقنا وخضوعنا لمطالب أجسادنا إنما هو نوع من السذاجة والبراءة innocence ، وأن اجابة الانسان لنداء طبيعته وغرائزه التى ولدت معه إنما هو خضوع لارادة الله . وما الفرق عنده بين من يجارى ميوله وشهواته كلها وبين من

يكبح بعضها إلا كالفرق بين (من يأكل كل شيء ومن لا يأكل غير الخضروات)

ويقول جيد أيضاً : (ليس فى الانسان شيء غير طاهر) Rien n'est impur en soi ، لذا كان ما تفيض به طبيعة الانسان من ميول وشهوات لا يجب فى نظره أن يحمل غير معنى الطهر والنقاء والاخلاص لأنفسنا فيجب أن نطيعها دون اختيار (لأن كل اختيار إنما هو تحديد لحريتنا)

على أن جيد يشترط لكل عاطفة تحركنا أن تكون مخلصة لكى نطيعها ونجيب نداءها . ففى Si le grain ne meurt نسمعه يقول : (إن لذاتى لا تحجب وراءها فكرة خفية . لذا لا ينبغى أن يتبع هذه اللذات أى شعور بالندم) فهو يقصد بذلك أن يقول إن فكرة الحرية والانطلاق إذا استترت وراءها نية أو غرض معين خرجت عن دائرة البراءة والأخلاص

وفى ضوء ما ذكرنا نرى أن فكرة أندريه جيد فكرة مزدوجة مضمونها :

أولاً : الناحية الجسدية الحيوانية فى الانسان وهى الناحية البريئة الساذجة

ثانياً : الناحية المعنوية ، وهى إما الناحية الخاصة بالاحساس الدينى ، وإما الناحية الشيطانية فى الانسان

ففكرة جيد هى الفصل بين هاتين الناحيتين اللتين هما فى الواقع حقيقتان من حقائق الطبيعة الانسانية — الناحية الجسدية والناحية المعنوية — ثم السمو بهما الى أقصى ما يمكن من الطهر والنقاء . وما السبيل الى ذلك إلا بنبذ كل ما لا أساس له من الحق والصدق ، وفى مقدمة ذلك بالطبع كل ما رغمنا عليه المجتمع . ولقد استخدم جيد فى البداية عبقريته كناقد فذ فى تبرير حقه فى الانطلاق والتمتع بالحياة وفى (الحب الذى لا يجرؤ أن يقول اسمه) على أنه فيما بعد صرف همه الى العناية الشاملة بكل تقاليد المجتمع وحقائقه الفارغة وأوهامه لكى يعمد بعد ذلك الى تنقيحها أو هدمها من أساسها ، فنراه مثلاً يهاجم فكرة الحماية الأدبية ويطعن فى نظم التربية ويفضح مظاهر الرياء بين الطبقات الوسطى الى غير ذلك مما يراه من المفاسد الاجتماعية التى تقف حائلاً بين الانسان وبين حريته التامة .

ولقد كانت (فردية) اندريه جيد سبباً فى أن يبقى حتى الثامنة والخمسين من عمره بعيداً كل البعد عن الاهتمام بالمصلحة العامة أو الايمان بعقيدة سياسية أو اجتماعية على اعتبار أن الأصغاء لأفكار الغير يحد أو يغير من أفكار الانسان الخاصة التى يجب أن تكون بعيدة عن كل تأثير خارجى . وأندريه جيد فى عزلته السياسية والاجتماعية كان يخالف تماماً كثيراً من أعاظم الكتاب الفرنسيين المعاصرين مثل أناتول فرانس وشارل موراس ومورياس باريس وشارل پيجوى ورومان رولان وغيرهم .

على أن جيد بعد رحلته الى الكونغو وأواسط أفريقيا خرج مرة واحدة من دائرته الخاصة الى دائرة المجتمع الانسانى بأجمعه . يفكر فى ظروف الحياة فيه بعين تفيض بالرحمة الواسعة والحنان العظيم حتى أن المرء ليحس بأنه قد نسى نفسه ولم يعد يفكر الا فى الآخرين !

وفى كتابيه Voyage au Congo و Retour du Tchad نرى جيد يدافع عن الأمم المستعمَرة لا بمهاجمة فكرة الاستعمار نفسها ولكن بالمطالبة بحق إثارهذه الأمم فى التقدم المطرد فى جميع شئون حياتهم وبتشفيه كل استعمار ينتهك حرمة هذه الحقوق المقدسة

ولكن هل بقى جيد عند هذا الحد من الاعتدال فى تفكيره السياسى وهو الذى من دأبه السير إلى أقصى حدود التطرف ؟ لا . إذ لم يكد ينقضى وقت يسير حتى رأينا جيد يرتمى فى أحضان الشيوعية التى اعترف بأنه عند اعتناقها كان يجهل صميم نظرياتها ، ولا شك أن اعتناق جيد للشيوعية مخالفة تامة لأسس تفكيره السابق ، لأن جيد (الفردى) قد أصبح يؤمن بنظام يقيد مصلحة الفرد فى سبيل مصلحة المجموع . وجيد الثائر على أى نظام من نظم التربية على اعتبار أن التربية تقييد وتحديد قد أصبح يؤمن بالمثل العليا الشيوعية . وجيد الذى كان ألد عدو للعقيدة الثابتة dogme قد أصبح إيمانه بالشيوعية تسليم منه بالنظريات الماركسية كنظرية (التفسير الاقتصادى للتاريخ) مثلاً . . . . وغيرها . على أن فى

الشيوعية أيضاً تتحقق معظم أفكار جيد وآماله ، ففيها شرود نهائي من ماضيه الديني الذي أثقله زماناً طويلاً ، وفيها التخلص من عبودية نظام الأسرة الذي طالما حاربه وناضل في سبيل القضاء عليه ، وفيها أمل جديد في الوصول الى ما يسميه جيد (مملكة الله) أي قتل الجوانب الخبيثة في الانسان بالتخلص من كل أنانية والتحرر من كل تفكير ذاتي ، وهو يرى فيها أيضاً الشفقة الزائدة والتفكير الجدي في محو الشقاء الانساني

ولعل من العجيب أن اندريه جيد منذ أعلن إيمانه بالشيوعية لم يعمل أي عمل أدبي جديد ، مقتصراً على نشر المقالات المختلفة التي تدور كلها تقريباً حول تبرير انقلابه الجديد ، ولا نقول الأخير ، فهل منا من يضمن أن جيد يستقر على حال ؟ !

* * *

لعل مظاهر التقلب والقلق الدائم وعدم الاستقرار التي صاحبت جيد عشرات السنين هي أعظم ما يرفعه (كانسان) لأنها نتيجة تغلغل عاطفة الحرية في دمه الى حد قل أن يكون له نظير ، فظل طول حياته (حديقة من التردد) ـ كما يسميه أكبر أتباعه الكاتب الفرنسي جاك ريفيير ـ لا يهدأ له بال . يدرس الحياة بنواحيها الفكرية والحسية ، يسافر الى أقصى البلاد . كل ذلك لكي يصل الى الحقيقة المنشودة التي يسعى وراءها . وبرغم عبء ماضيه الديني الثقيل فقد استطاع أن يحطم أغلاله لينطلق باحثاً منقباً

إننا حين نحكم على اندريه جيد يجب أن ننظر الى مجموع شخصيته ، متغاضين عن تلك السبل الشاردة التي اختطها في حياته الخاصة ودعوته العامة ، وتعتبر في نظر ناقديه ـ مبالغة قصوى في تفسير معنى الحرية ـ لقد علمنا جيد كيف ننتصر على الخجل المقيت والرهبة البغيضة التي لا معنى لها ، علمنا كيف نكشف دخائل نفوسنا ولا نتركها في الظلام الدامس لا نعرف كنهها كأن ليس لنا بها صلة ، علمنا كيف نسلط عليها ضوءاً وهاجاً نستمده من صميم إرادتنا وشجاعتنا ، علمنا كيف نصرح بكل ما يجيش في خفايا قلوبنا من النزعات الصارخة ـ علمنا كيف ومتى نعرف تماماً حقيقة نفوسنا . . . . ليس بالاستسلام لغرائزنا الحيوانية كما يتهمه أعداؤه ظلماً ، بل بأن نسابر طبيعتنا مهما كانت بشاعة عظيمة ، سواء ما كان منها خاصاً بالناحية الحيوية أو بالناحية الروحية ، وأن نكون دائماً على أتم أهبة لمواجهة الحياة المتغيرة ومجاراتها على الدوام في قالب جديد

علي فاضل

المصادر

1) René Schwob : Le vrai drame d' André Gide (1932)
2) André Billy : La litterature francaise contemporaine (1929)
3) René Lalou : Histoire de la littératnre francaise cont - emporaine (1931)
4) René Groos et Gonzague Truc : Tableaux du XX ème siècle (1900 — 1933) Les Lettres (1934)
5) Benjamin Crémieux : André Gide (étude) Nov. 1934

الحج فريضة على كل مسلم ومسلمة

شركة مصر للملاحة البحرية

مهدت السبيل اليه

بباخرتيها

«زمزم» و «الكوثر»

قوموا لحج بيت الله

يغفر لكم ما تقدم وما تأخر

الاستعلام من إدارة الشركة بعمارة بنك مصر القاهرة